التسلط على الفن وثورة أخناتون

«الفكرية - الدينية - الفنية»

وتأثيرها على الفن المصري القديم والحديث

البروفيسور/ مصطفى عبده محمد خير(*)

مقدمة ضرورية لضرورة الفن والجمال

أبدع بديع السموات والأرض الكون من خلال (كُن) فكانت الكائنات، وخلق الإنسان ليكون مبدعًا، وجعله خليفة ليعمر الأرض بالإبداع، فكان الإنسان وكان معه الفن، وكان معه الدين، فهو كائن جمالي مبدع وكائن متدين أيضًا، حيث تلازم الفن بالإنسان، وتلازم الدين بالإنسان، ولتلازمهما مع الإنسان كان لابد لهما أن يتلازما وقد تلازما، أخذ الفن مواضيعه من الدين، وأخذ الدين قوته بالفن على حسب قوة الاعتقاد وضعفه في النفس البشرية.

انحرفت البشرية في الحضارات القديمة عن قضية التوحيد وتحورت عبادة التوحيد النقية إلى عبادة وثنية صنمية، واستخدمت تلك الأديان الوثنية الفن كوسيلة تعبدية، فبُنيت المعابد الشاهقة ذات الدهاليز المظلمة المؤدية إلى قدس الأقداس حيث يقبع ذلك الصنم المعبود، فاستخدم الكهنة وسدنة الآلهة الفنون الزمانية والمكانية والحركية من عمارة ونحت وتصوير وكتابة وزخرفة ودراما وشعر ورواية وغناء وموسيقى ورقص وتراتيل مبهمة وإيقاعات تعبدية لإدخال الخوف والرهبة في نفسية العابد ليركع ويسجد لتلك

(*) أستاذ الجماليات بجامعة النيلين - السودان - ٢٠٠٧م.

الأصنام (المنحوتة والمنصوبة والمرموزة) فاستخدم الكهنة هذه الأدوات الفنية لتركيع الشعوب لاستكمال السيطرة على الشعوب، فقيدوا الفن بتلك الأمراس الوثنية لتحقيق مآربهم ومآرب السلطات الحاكمة من ملوك وأباطرة وقياصرة وأكاسرة وتُبع لتأكيد السلطة والتحكم والتسلط على الناس.

بدأ هذا التسلط منذ فجر التاريخ بظهور الحضارات الحجرية القديمة في العهود البلاستوسينية «البايوليثك- والميزوليتك والنيوليتك»، وأول تمثال عُبد كان لامرأة وهي «الأم المقدسة- Goddess» «ويلندورف- لشبوق- كدركة». ومن ثم توالت هذه المفاهيم عبر الحضارات المتعاقبة لحضارات سادت ثم بادت بدءًا بالحضارات الإفريقية الطوطمية وحضارة بلاد كوش والحضارة الفرعونية وحضارات بلاد ما بين الرافدين «الاكادية والكلدانية والبابلية والسومرية والآشورية والإخمينية» وحضارات الهند الصينية والحضارات القوقازية والحضارات الأوربية وحضارات أمريكا الوسطى، وحضارات الجزيرة العربية.

وكان الفن هو المحور الأساسي لهذه الحضارات متقيدًا بتلك القيود الوثنية، والأسر الكهنوتي، والقيود العقائدية بالقهر الديكتاتوري والقسر الآيدولوجي، وهكذا استخدم الفن استخدامًا بشعًا والبشاعة أدنى درجات القبح.

للقبح ضرورة جمالية، فالقبح درجة جمالية وأدنى درجات الجمال، فلابد من قبح لإظهار درجات الجمال، ولكن ألا يطغى القبيح على الجمال ولا يتدنى من قبح إلى دمامة وشناعة وبشاعة، والجمال يترقى من جمال إلى جلال لينحو نحو الكمال، فالجمال يتكامل في ترقيه وتصاعده نحو الكمال مع أنه لن يبلغ الكمال ليصعد فيما ينبغي أن يكون عليه.

وهكذا نجد أن الفنون بأنواعها المختلفة كانت أداة من أدوات الانحرافات والوثنية «العقائدية والسلوكية» فكانت الفنون في خدمة القداسة الكهنوتية والهالة الديكتاتورية من خلال السلطة والتسلط، والقهر السلطوي.

فكان لابد من تحرير الفن من القيد الوثني، والأسر الكهنوتي، والقيود العقائدية، والقهر الديكتاتوري، والقسر الآيدولوجي، فلابد من فن مقاوم وثورة فكرية وإبداعية

واعتقادية ليتحرر الفن من هذه الأمراس التي تقيد مسيرته ولابد من استيقاظ النفوس لترى الجمال لتعمل بمقتضى الجمال من عبقرية المكان وعطاء الزمان، والإنسان في مكان داخل زمان.

وكانت أول ثورة في التاريخ لتحرير الفن من تلك الأغلال والقيود المقيدة في القرن الرابع عشر قبل الميلاد بظهور أخناتون مفجر ثورته الدينية والفكرية والفنية من خلال الحرية الإبداعية، والابتعاد عن الفنون المقدسة، وعليه يمكن إطلاق فنون ما قبل أخناتون وما بعد أخناتون، كما نقول في الفلسفة قبل سقراط وما بعد سقراط.

إلا أن الفن انتكس مرة ثانية عبر القرون المتتالية في خدمة العقائد المنحرفة للحضارات المتوالية متقيدة بالأمراس القدسية والدينية، حتى كان التحرر من تلك القيود الكهنوتية في القرن السابع الميلادي بظهور الإسلام وفتح مكة وتحطيم الأصنام وخروج الفن من دور العبادة إلى الطبيعة الرحبة والكون الفسيح، وتحويل الفن من خدمة الآلهة إلى خدمة التدين في الإنسان، لعبادة الله عبادة خاشعة، وكان الموقف الإسلامي هو موقف عقائدي بألا يخدم الفن الدين بل يخدم الإنسان في خدمة التدين في الإنسان، فلم يكن الإسلام ضد الفن ولا ضد التعبير الجمالي، بل ضد الانحراف التعبدي بالوثنية، والانحراف السلوكي في الإباحية.

وقد انتكس الفن للمرة الثالثة في العصور الوسطى الأوربية والإسلامية، حتى كان عصر النهضة في أوربا (١٤٠٠-١٦٠٠م) ولم يكن التحرر كاملًا لأن مواضيع عصر النهضة في عصرها الذهبي (ليوناردودافنشي- ومايكل أنجلو-ورفائيل" دينيًا في الكنائس، وكان الأسلوب وثنيًا في إحيائهم الكلاسيكي الإغريقي في القرن الخامس قبل الميلاد.

وتبع عصر النهضة عصر (الباروك والركوكو ١٦٠٠-١٨٠٠) وكان فنيًا طبقيًا ومظهريًا وركيكًا، فكانت الكلاسيكية العائدة بقيادة (لويس ديفيد) ولوحته (قسم الاخوة حوراس) فتربع على عرش الفن وكتم أنفاس الفن حتى كاد أن يقتله بقوانينه الأكاديمية والكلاسيكية، فكانت الثورة الرومانتيكية بلوحة (طوف الميدوزا) لثيودور الجريكو، ومن ثم كانت فنون القرن التاسع عشر والخروج إلى الطبيعة والفضاء الرحب وظهور المدارس الحديثة في الفن.

إلا أن الفن في العصور الحديثة والمعاصرة استخدم استخدامًا غير لائقًا في إلهاء الشعوب عن مهامها الحضارية وفي إخفاء انحرافات الحكومات القائمة، ومحاولة لإفساد شبابها بالخلاعة والفجور ليسهل قيادة الشعوب المغلوبة على أمرها، وتدمير قيمه الجمالية لتدميره بإفساده.

ولكن مهمة الفن على العكس من ذلك، فالفن ثورة ضد الانحطاط والتدني والهبوط، واحتجاج دائم نحو التنوير، والفن مقاومة للسلطة والتسلط، ودعوة للترقي للعيش في المستويات العليا الرفيعة بالتعالي على الدنايا والخطايا والرزايا.

الفن أصدق أنباء التاريخ فكم من حقائق تاريخية انزوت في ظلمات التاريخ، فكان الفن هو الكاشف عن تلك الحقائق، لأن الفن هو تعبير الشعوب عن نفسها بنفسها لنفسها.

والفن رسالة إنسانية ووسيلة بشرية بارعة للإفصاح عن حالة الوعي الإنساني بتقديم الحل الرائع للإيقاعات الجمالية بتحقيق الروعة الإبداعية.

فالفن ضرورة للبناء الحضاري وفي مقاومة القبح والتدني ومقاومة السلطة والتسلط، والفن ثورة فكرية وثقافية وحضارية لبناء حضارة إنسانية.

وعليه سوف نتحدث في المحور التالي عن ثورة أخناتون (الدينية والفكرية والفنية) وصراع أخناتون الملك الفيلسوف ضد كهنة آمون ودعوته التوحيدية في عبادة (أتون) القوة الكامنة فيما وراء الشمس، وإنشائه للمدينة الفاضلة في تطبيق منظوره الفلسفي والفكري والعقائدي في بناء المدينة الفاضلة في تل العمارنة وسماها (أخيتاتون- أفق الشمس).

وكان المحور الذي يليه لإظهار ثورة أخناتون وتأثيرها على الفن الفرعوني، وتأثير هذه الثورة على الفن الحديث والمعاصر خاصة في منحوتات النحات المعاصر محمود مختار وخاصة تمثال «نهضة مصر»، وتمثال «العجل أبيس» بالإسكندرية.

لنختتم هذه الرسالة بأن الفن ليس فقط للذة وسد الفراغ ولإسقاط الانفعالات، بل أن مهمة الفن تكمن في استيقاظ النفوس لترى الجمال الذي هو فينا ومن حولنا ويسير معنا فلا نراه ولا نشعر بالجمال، فقط نحس بالمعاكس لنا في الطريق، والمعاكس هو القبيح فلا نرى

ولا نحس إلا بالمعاكس. فلابد من استيقاظ النفوس لترى الجمال، وهذه هي مهمة الفنون في استيقاظ النفوس لترى الجمال لتعمل بمقتضى الجمال من خلال مقاومة الفن للقبح والتدني ومقاومة السلطة وقهر التسلط من خلال حرية الفعل الجمالي والسلوك الإبداعي لبناء حضارة إنسانية جمالية. إذن الفن ضرورة حضارية.

المحور الأول

[١] فكرة الخلود أساس الحضارة المصرية القديمة (الفرعونية):

الأمة المصرية هي من أقدم الأمم التي عرفت الخلود وعملت له، وعرفت أن هناك حياة أخروية خالدة، وأن هناك حساب أخروي (ثواب وعقاب) بعد الممات، وأن الموت ليس نهاية بل هو بداية للانهاية، وأن الحياة الدنيوية مرحلة من مراحل حياة الإنسان.

انفعل إنسان وادي النيل بالنيل، كلما تأمل جريان النيل فتخيل الأزلية والأبدية، فانفعل بشروق الشمس وغروبها المتعاقب فتولدت لديه تصورات شكلت نواة عقيدته التي أصبحت عماد الحياة ومحور الأدب وموضوع الفن، وتوصلوا إلى فكرة الخلود وفلسفة الحياة والموت وتخيل الحياة بعد الممات فجاشت نفسه بملامسة الطبيعة فتكلم الحجر الأصم بتماثيل ومعابد تميزت بطابع الجلال معبرة عن الخلود والأبدية وتكونت الحضارة المصرية الشامخة على مر الدهور من خلال ما أنتجوه من فنون تصارع الزمن.

فقد اكتسب المصري القديم فنه من عقيدته، واستمد حكمته من فنه فلمس الوجود لمسة الروحاني الفنان، فأقدم على تحقيق أفخم المشاريع المعمارية والتماثيل الجرانيتية والرسوم الجدارية الوثائقية.

وأن الفن المصري القديم نشأ ليحفظ الحياة بعد الممات تأكيدًا لخلود الروح والجسد، وهذا ما جعله يتميز بكونه فن الحياة الخالدة[١]. وهكذا كانت عقيدتهم في الخلود السبب في خلود فنهم.

---

(١) مصطفى عبده - المدخل إلى فلسفة الجمال- صـ٣٨-٣٩..

وقد عرف المصريون القدماء التوحيد من خلال الأنبياء الذين كانوا في مصر أو الذين دخلوا مصر، وقد هبط (آدم) عليه السلام على ضفاف النيل وسار شرقًا حتى التقى بحواء عند جبل عرفة، وقد هبط (إدريس) عليه السلام من أعالي الفرات إلى مصر هو وأتباعه الحورشيوس وهو أول نبي مرسل بعد آدم وقد جاب البلاد معلمًا للحكمة والعلوم، يطلق عليه المصريون اسم (حورس) ويسمى عند اليونان (هيرماكس) ويسميه العرب (أخنوخ) والعبديون يسمونه (خاتون) وعند الفرس كان يسمى (هرمز). وقد جاء (إبراهيم) عليه السلام إلى مصر وتزوج (هاجر) وهي أميرة مصرية نوبية. وقد كان (موسى وهارون) عليهما السلام في جنوب مصر، وكان (يوسف) عليه السلام بمصر حتى أنه كان صاحب خزائن مصر، وقد أحضر (يعقوب) عليه السلام لمصر، وقد مر (عيسى) عليه السلام بمصر.

إذن عقيدة التوحيد كانت معروفة عند المصريين القدماء. ولكنهم انحرفوا في مفهوم البعث الجسدي وظنوا إن فَنَا الجسد فلن يبعث مرة ثانية. ولهذا عملوا على إبقاء الجسد كما هو حتى تدخل فيه الروح الخالدة فيبعث مرة ثانية. فكان (التحنيط) - الذي مازال سره مخفيًا حتى الآن - ومن خلال التحنيط انبثقت كل العلوم مثل التشريح وعلم الأدوية والصيدلة وعلم التطبيب والطب والهندسة والفيزياء والكيمياء وعلوم الأرض وعلوم المياه وعلم الرياضيات والفلك.

وكان المصريون في عهودهم القديمة يدفنون موتاهم على شكل (القرفصاء) وكانت المقبرة على شكل بيضاوي في محاولتهم لوضع الميت على شكل جنين كما كان في رحم أمه عند ولادته الأولى ليولد من رحم الأرض في ولادته الثانية عندما يبعث للمرة الثانية من رحم الأرض.

وكانوا يضعون مستلزمات الميت مع الميت في قبره، ولكن اللصوص كانوا يسطون على هذه الكنوز والأموال الجاهزة، ولهذا اهتدوا إلى بناء حجرات تحت الأرض ورسم ممتلكاته على جدران الحجرات حتى يستذكر الميت حينما يبعث ما كان عليه قبل موته ليمارس حياته الأخروية على نمط ما كان[1].

(١) مصطفى عبده - ملامح الفن التشكيلي- صـ٣٠-٣٤..

بدأت العمارة المصرية من تحت الأرض (المقابر) حيث تعددت الحجرات على حسب مرتبة المتوفي ليكون في نفس المرتبة في الحياة الأخروية. ثم بنيت مصطبة فوق الأرض ثم مصاطب حتى كان الهرم المدرج، وكان أول هرم مدرج هو هرم (زوسر)، وتطورت الأهرامات حتى كانت أهرامات الجيزة (خوفو- خفرع- منقرع)، وكل الأهرامات عبارة عن مقابر لحفظ جسد الملك إلا هرم (ميدوب). ومن المعلوم فيزيائيًا أن الشكل الهرمي يحفظ الجسد الذي فيه وذلك لتكسر الإشعاعات فلا تؤثر في الجسد فلا يتحلل- وهذه معرفة فيزيائية متقدمة. ثم كانت التماثيل المشابهة والمعابد والعمارة المصرية.

وهكذا كانت الحضارة المصرية القديمة من خلال فنونهم التي خرجت من خلال عقيدتهم في خلود الروح وخلود الجسد فاكتسب الفنان المصري فنه من عقيدته واستمد حكمته من فنه فأقدم على تقديم أضخم المشاريع العمرانية والتماثيل الشامخة الجرانيتية والأهرامات والرسوم الجدارية والمعابد الفارهة والكتابات الوثائقية.

وهكذا ارتبطت فنونهم بعقيدتهم، فكانت الفنون فنونًا مقدسة مثالية، فكانت سيطرة الكهنة على مسار الفنون المصرية القديمة واستخدمت الفنون كوسيلة للسيطرة على الشعب المصري.

كانت الفنون المصرية القديمة فنون دينية مقدسة لها قوانينها القدسية يتحكم فيها الكهنة، فكانت الفنون فنون قدسية في خدمة الكهنة والآلهة والفراعنة، وقد رفع المصريون الفراعنة إلى مصاف الآلهة، فكانت هذه الفنون مقيدة بالقيود الوثنية ومأسورة أسرًا كهنوتيًا.

وهكذا كانت الفنون المصرية حتى ظهر (أخناتون). وعُد أخناتون (أمنحوتب الرابع) أول مجدد للفن. فكان الفن الذي دعا له أخناتون حبًا جديدًا للحقيقة الواعية وحساسية ورهافة شعور، فحاول الفنان تصوير الحياة الروحية الباطنة حاوية للمعاني الجمالية المرهفة. وكان تأثير ثورة أخناتون (الفكرية والدينية والفنية) أي الفلسفية كبيرًا على الفن المصري القديم وقد امتد تأثيره على الفن المصري الحديث والمعاصر.

كان فن تل العمارنة أو مدينة أخناتون الفاضلة (أخيتاتون) رمزًا للحرية الفنية والحب والجمال فنجد الحب والجمال يتردد في أناشيد أخناتون لآتون:

أنت ساطع وقوي

وحبك عظيم وكبير

أشعتك تمد بالبصر كل واحد من مخلوقاتك

ولونك الملتهب يجلب الحياة إلى قلوب البشر

عندما تملأ بحبك الأرضين

وقد أحدث أخناتون تغييرًا جذريًا في المفهوم الفني والمفهوم الجمالي. وقد امتد هذا التأثير حتى الفنون الحديثة والمعاصرة. وهي أول ثورة في التاريخ لتحرير الفن من تلك القيود التي كبلته وتلك المثالية ليحكي الفن عن الواقع والحياة الحقيقية للناس.

ونجد الرشاقة والحرية في التعبير الإبداعي والاهتمام بالواقعية وإبراز للجماليات والاختلالات ومخاطبة النفس والوجدان والخلجات النفسية وتصوير حياة الناس وعليه يمكن لنا أن نقول فن ما قبل أخناتون وما بعد أخناتون.

[٢] ثورة أخناتون «الفكرية- الدينية- الفنية» الفلسفية

انبثقت الحضارة المصرية القديمة وفنونها التشكيلية والمعمارية من خلال عقيدتها في الخلود - كما بينّا ذلك - وكان الفن عمومًا فنًا مقدسًا وفي خدمة العقائد الوثنية وخدمة الآلهة وسدنة الآلهة (الكهنة).

فكانت ثورة أخناتون الدينية التوحيدية غيرت المفاهيم العقائدية والمفاهيم الفكرية الراسخة. فاتجه الفن إلى خدمة الإنسان لإظهار الجمال في خدمة الفن الواقعي الطبيعي والجمالي.

وأخناتون هو أمنحوتب الرابع ابن أمنحوتب الثالث الذي تزوج فتاة من عامة الشعب وهي الأميرة (تي). كان هذا سببًا طبيعيًا وفطريًا في اتجاه أخناتون الآيدولوجي ليتجه نحو الشعب وإلى عامة الناس والخروج من الحجر الملكي والدم الملكي والقدسية الملكية المحاطة بهالة مقدسة.

وقد نادى أخناتون بنبذ عبادة (آمون) لعبادة (آتون) رمز إليه بأشعة الشمس بمعنى القوة الكامنة في الشمس وليس الشمس كما يزعم البعض، وذلك بعبادة (الله) الواحد الذي أعطى القوة للشمس المشرقة فأوغل في الروحية وابتعد عن المادية، أغضب ذلك كهنة الآلهة المتعددة خاصة كهنة آمون، فكانت المواجهة عقائدية وفكرية وفنية، وقد تمكن كهنة آمون استعادة عبادة آمون بعد اغتيال أخناتون ولكن تأثير ثورة أخناتون الفكرية والفنية لم تخمد بل استمرت تأثيراتها على الإنتاج الفني المصري القديم والحديث. ثورة أخناتون هذه لم تقتصر على التغيير العقائدي فقط بل امتدت بطبيعة الحال إلى الفن المصري والحضارة المصرية التي تستمد فنونها من العقيدة المصرية.

وثورة أخناتون هي ثورة فكرية فلسفية وفنية جمالية حيث نجد التغيير في الأنماط الفنية والإبداعية فتخلى الفن المصري عن الأساليب الكلاسيكية الكهنوتية المقدسة وعن الفنون المثالية التي تعطي للملوك قدسية ومثالية، فكانت أوامر أخناتون أن يرسموه وينحتوه كما هو بدون مثالية في إظهار للجماليات والاختلالات والتشوهات وبدأ ذلك بنفسه في جلسات أسرية وطبيعية وواقعية، وأمر أيضًا برسم المناظر الطبيعية والحياة العامة الشعبية والاتجاه نحو الجمال في إظهار الأحاسيس والمشاعر.

وقد ظهر الملك الفرعوني على أنه إنسان (مختار) وليس على أنه ملك مقدس أو إله، وبهذا بشر أخناتون في ثورته التجديدية في الحب والمساواة والعدالة، فكان الفن واقعيًا في إظهار الجماليات والتشوهات الموجودة، أي الجمال والقبح، والقبح درجة من درجات الجمال متدنية لإظهار درجات الجمال، وإظهار التوازنات والاختلالات.

وهذه الثورة التجديدية أعطت للفنانين والمهندسين والنحاتين والمصورين الحرية في التعبير الفني والجمالي والهندسي ليعبروا بصدق عمّا يرونه في الواقع المعاش وليس ما يتخيلونه أو ما يجب أن يكون عليه من مثالية وقدسية، فأعطت فترة "تل العمارنة" فنونًا سامية في خطوطها وألوانها ومواضيعها بُعدًا جماليًا ورهافة حس وتوقد لشعور وروحانيات في الإنتاج الفني.

وفترة تل العمارنة تعتبر قمة حضارية في إظهار العواطف النفسية والانفعالات

والخلجات الإنسانية في ليونة ورقة وواقعية. وعلى الرغم من أن هذه الفترة كانت قصيرة، إلا أنها أحدثت انقلابًا حضاريًا وتعبيرًا في المفهوم الجمالي وكان لها أثرها الفعّال على المعتقدات المصرية وعلى المسيرة الفنية والإبداع الجمالي للفن المصري القديم وقد امتد هذا التأثير الجمالي والفني إلى الفن المصري الحديث والمعاصر.

[٣] أخناتون الملك الفيلسوف ومدينة «أخيتاتون» الفاضلة

ثورة أخناتون أول ثورة جمالية في التاريخ يقودها ملك فيلسوف، وأخناتون هو أمنحوتب الرابع أحد ملوك الأسرة الثامنة عشر - الدولة الحديثة- ١٥٧٥ق.م. ٩٤٥ق.م. غيّر اسمه من أمنحوتب أي (آمون راضي) إلى أخناتون أي (المفيد لآتون). ألغى عبادة آمون، وأعلن أن عبادته إلحاد، نادى بالتوحيد وعبادة (آتون) الواحد الأحد أي (القوة الكامنة فيما وراء الشمس) أي (الله) يقول في بعض أناشيده:

أنت الواحد الأحد لا شريك لك

يا إله الشمس يا من لا شبيه له

أيها الإله المعبود- أنت واحد أحد

فسبحانك من ميز لخلقك.

لم يكن أخناتون أول من نادى بالتوحيد فقد سبقه من نادى بالتوحيد، وهو ليس أول فيلسوف مصري. فقد ظهرت الفلسفة النظرية والتطبيقية منذ القرن (٢٧) ق.م. بظهور (بتاح حتب) حيث كان الميزان الذي وزنت فيه العدالة وكان (الماعت) يعني العدالة والنظام محور الفكر المصري القديم.

يقول الدكتور مصطفى النشار في كتابه «الفكر الفلسفي في مصر القديمة»: «إن الفلسفة كغيرها من مختلف الإبداعات الحضارية هي إبداع مصري أصيل وإن معلمي الحكمة للعالم هي فلاسفة مدينة (أون) ومدينة (منف) ومدينة (واست). وإن فلاسفة من أمثال (بتاح حتب) في القرن (٢٧) ق.م.، و(أيبوور) في القرن (٢٠) ق.م. و(أخناتون) في

القرن (١٤) ق.م. هم معلمو الإنسانية الأوائل ومن خلال تعاليمهم ازدهر الفكر الفلسفي في اليونان في القرن (٤) ق. م.[١].

ازدهرت الفلسفة في اليونان لكنها نشأت في مصر كما بيّن ذلك الدكتور مصطفى النشار في كتابه الموسوم الفكر الفلسفي في مصر القديمة: ونحن بدورنا من خلال تخصصنا في تاريخ الفنون نؤيد هذه المقولة التي تفيد المفاهيم الفلسفية بأن الفلسفة نشأت في مصر خاصة في جنوبها وامتدت تأثيراتها إلى اليونان عبر البحر الأبيض المتوسط لتزدهر الفلسفة في بلاد اليونان استمدادًا من الفكر المصري القديم.

وكان (الماعت) لب الفلسفة المصرية القديمة في «أون - وانوا - وواست» وظهر في هذه المدن القديمة حكماء وعلماء لهم مذاهب فلسفية مثل المذهب الشمسي والمذهب الأشموني والمذهب المنفي. وقد توصلوا إلى افتراض وجود إله خالق مدبر حكيم خلق الكون والكائنات برعايته ورحمته[٢] ونضيف إليها المذهب الأخناتوني.

وقد قدم بتاح حتب في القرن (٢٧) ق. م. تعاليم أخلاقية كأول رائد للفكر الأخلاقي في مصر القديمة، فقد أورد رأيه في كتاب «مخطوط الحكمة» رأيه في المعرفة والفضيلة والسياسة مقارنًا بين العلم والقيم الأخلاقية وهي الحكمة النظرية والتي أطلقت فيما بعد بـ«الفلسفة» في العصر اليوناني في القرن الخامس قبل الميلاد.

ويدور فكر بتاح الأخلاقي حول (الماعت) للدلالة على كل ما يفيد العدل والنظام والخير والصلاح، والتي أخذت مكانة سامية في فكر بتاح الأخلاقي والسياسي.

أما بردية (إيبوور) فهي مليئة بالنقد في نقد الحالة القائمة في مصر في ذلك الزمان، أي في عهد بيبي الثاني - الأسرة السادسة - التي حكمت مصر (٢٤٣٠-٢٢٣٠ق.م) في وصفه لحالة الفوضى الأخلاقية والسياسية والاجتماعية[٣].

---

(١) مصطفى النشار- الفكر الفلسفي في مصر القديمة- صـ١٧.

(٢) راجع كتاب مصطفى النشار في الفكر الفلسفي في مصر القديمة.

(٣) مصطفى النشار- مرجع سابق- صـ٨٧.

وهي أي بردية (إيبوور) وثيقة تاريخية للفكر النقدي (فلسفة سياسية) في المجالات الأخلاقية والسياسية والاجتماعية.

أما الحدث الفكري الكبير في المسيرة الفكرية والفلسفية في مصر القديمة هو ظهور (أخناتون) مع ثورته (الفكرية والدينية والفنية) - ثورة فلسفية - التي أحدثت انقلابًا عقائديًا وإبداعيًا أثر في البناء الحضاري المصري قديمًا وحديثًا.

وهجر أخناتون (طيبة) العاصمة الفرعونية لفراعنة المصر إلى المدينة المقدسة (إخيتاتون) أي أفق الشمس واتخذها عاصمة له وهي الآن (تل العمارنة) وظلّ في عاصمته الجديدة ليعيش هناك في الحقيقة وينشر دعوته التوحيدية مبشرًا بدينه الجديد التوحيدي من خلال منظور فكري ومنطقي، بدون تجسيد للآلهة المتعددة، وعلى أنه الملك الفيلسوف وليس الملك الفرعون، وعلى أنه إنسان مختار وليس إله أو ابن إله.

وقد أحكم إخناتون في تصوره الجديد للإله المعبود بحق فهم عميق ومنطق عقلي لمعنى الألوهية والربوبية، ويظهر هذا المنطق العقلاني في أناشيده ونداءاته التوحيدية، وأنه ليس إله بل هو شخص مختار تتجلى فيه العبودية الحقة لإله معبود بحق. وقام بنقل هذه العبادة إلى الناس، وكان هذا الموقف التوحيدي ليس في مجال العبادة فقط بل في المجال الإبداعي والاجتماعي والإنساني والفكري التطبيقي في الممارسة الموضوعية الواقعية.

ولهذا أمر إخناتون ببناء إخيتاتون كمدينة فاضلة نموذجية في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وهي ليست (مدينة فاضلة) نظرية ومثالية وخيالية بل كانت مدينة فاضلة حقيقية يقيم فيها أناس يطبقون مقولاته الفكرية بإيمان تام متخلقين بالأسس التي وضعها إخناتون.

فقد أمر إخناتون بنحت تماثيل واقعية ليس بوضع مقدس أو مثالي كما كان من قبل، والاتجاه نحو الجماليات والوجدانيات وليس من خلال قواعد كهنوتية لتكون العبادة روحية وليست بتجسيم الآلهة المعبودة. وعلى أن تتجه تلك العبادة إلى آتون تلك القوى الخفية في الشمس كرمز للقوى الإلهية المهيمنة على الحركة الكونية.

وبهذا يكون إخناتون قد سبق أفلاطون وغيره في بناء (مدينة فاضلة) بعشرة قرون،

والمدن الفاضلة التي أتت من بعد إخناتون هي مدن خيالية ونظرية فقط، وليست مدن فاضلة، كما فعلها إخناتون في بناء مدينته الفاضلة

- مدينة إخناتون الفاضلة (إخيتاتون) في القرن ١٤ ق.م.
- مدينة كونفوشيوس (الإنسان النبيل) في القرن ٦ ق.م.
- جمهورية أفلاطون المثالية النظرية في القرن ٤ ق.م.
- مدينة ماركوي أوربللوس الرواقي في القرن ٤ ق.م.
- وغيرها من المدن الفاضلة التي ظهرت بعد ذلك.

فيكون بذلك إخناتون هو أول من فكر في بناء مدينة فاضلة نظريًا وتطبيقيًا/ ومفجر أول ثورة فنية ضد السيطرة الكهنوتية على الفن امتد هذا التأثير على الفن المصري القديم والحديث.

فقد كانت هذه المدينة الفاضلة (إخيتاتون) بتل العمارنة مدينة فاضلة حقيقية مارس فيها معتنقو هذه الديانة العبادة الحقة ومارسوا الفنون بكل حرية رسم وتصور الحقيقة الجمالية بتصوير الجماليات والاختلالات، وهي أول مدينة تمارس فيها الحياة الإنسانية والعبادة التوحيدية والممارسات الفنية والإبداعية والجمالية فهي مدينة فاضلة في تعاملها الاجتماعي دينيًا و إبداعيًا في الدنيا والآخرة.

وفي هذه المدينة الفاضلة مارس إخناتون ذلك الملك الفيلسوف العدالة والفضيلة والجمال والمحبة كنموذج حقيقي مصغر لتعم هذه الحركة العالم بأسره، فهي ثورة دينية ثقافية وفنية جمالية في تحقيق إنسانية الإنسان، أبرزت ضرورة الفن من خلال السلوك الإبداعي من خلال عملية إبداعية تحررية وفي مقاومة السلطة والتسلط على الفن.

المحور الثاني

أثر ثورة أخناتون على الفن المصري القديم والحديث

[١] أثر ثورة أخناتون على الفن المصري القديم - (فن ما قبل أخناتون وما بعده)

كان أثر ثورة إخناتون على الفن المصري جميلًا، يمكن لنا أن نقول فن ما قبل إخناتون وما بعد إخناتون، وكان تأثير مدرسة (تل العمارنة) عظيمًا على الفنون المصرية المعمارية وفنون النحت والتصوير (الفنون المكانية) وقد انداح هذا التأثير على الفنون الزمانية في الأدب والشعر والأناشيد والتراتيل التي كان يرتلها إخناتون في نداءاته التوحيدية.

وتُعد ثورة إخناتون أول ثورة جمالية في التاريخ وهو أول (ملك فيلسوف) نادى بثورته التجديدية وعمل بها- ونادرًا ما نجد ملكًا فيلسوفًا حتى في العصور الحديثة والمعاصرة- وقد قاد إخناتون هذه التغييرات بنفسه وطبقه تطبيقًا عمليًا. وهو أول ملك فيلسوف طبق فلسفته النظرية إلى فلسفة عملية في محاولة لبناء حضارة جمالية تنداح من تل العمارنة أي مدينة إخناتون الفاضلة (إخيتاتون).

كانت المرحلة الإخناتونية مرحلة فارقة في الأسلوب المصري، وقد ظهر تأثير هذه الفترة على الفترات المتلاحقة ليس في الاعتقاد والفن فقط، بل في كل مناحي الحياة الاجتماعية غير أن فني النحت والتصوير كانا أكثر الألوان الفنية تأثرًا بهذه الثورة التي انطلقت تغير في المجتمع المصري، وكان سريان هذه العقيدة الجديدة ونتائجها مبهرًا ذلك أن إخناتون استوحى جوهر عقيدته الجديدة من المصادر المصرية ولهذا قبله المصريون حتى بعد موته لأنه خاطب الوجدان المصري فلم يخاطب الحواس فقط بل خاطب الوجدان والحدس الميتافيزيقي وخاطب الروح ليفسر الحياة الدنيوية في اتصالها بالخلود الأخروي، فقد كان الفن قبل إخناتون فنًا مقدسًا أخرويًا بعيدًا عن الحياة الدنيوية فعمروا الدنيا في محاولتهم تعمير الآخرة، إلا أن الاتجاه الإخناتوني كان فنًا واقعيًا دنيويًا وأخرويًا.

فقد انتشرت النظرة الواقعية بدل المنظور المثالي، والمنظور الجمالي بدل النظرة القدسية، والتعامل مع الملك على أنه إنسان مختار اختاره سيد الخلق العظيم من بين البشر ليبشر بعقيدته حتى يسود الحب بين الناس وبين الكائنات الحية.

وهكذا كان إخناتون كما يقول (هاوزر) في كتابه «التاريخ الاجتماعي للفن» هو (أي إخناتون) من أبدع الفن الإنساني حين جعل من المذهب العقدي الجامد مذهبًا حيًا، وذلك حين ألقى في روع الفنانين حب الطبيعة يستلهمون منها وما فيها من جمال، وإذا هم يصورون انطباعاتهم وأحاسيسهم، بعد أن كانوا يحاكون ما يشاهدونه بأعينهم وما يتخيلونه من مثاليات متخيلة»[1].

ومن بعد إخناتون اعتنى فناني تل العمارنة بالمناظر الطبيعية وبالمناظر الأسرية والحياة الخاصة والأسلوب الشعبي، كما اهتم الفنانون بتصوير الجسم وجعله نابضًا بالحياة والعواطف الانفعالية في تعبيرهم عن الحياة الباطنة المنعكسة على تعبيرات الوجوه، وقد اتخذ فنانو تل العمارنة من الطفل موضوعًا جديدًا من موضوعات فن النحت والتصوير فصوروا بنات إخناتون ونحتوها، ونحتوا تماثيل للملك الشاب (توت عنخ آمون).

وكان الفن المصري في التصوير يعتمد على البُعدين فن مسطح، نجد أن هناك بُعدًا ثالثًا في التصوير في إظهار الوجوه كاملة والأكتاف بارزة وكذلك النهود وأصابع الأرجل واليدين كما هي. كما أن النحت المصري تحرر من الجمود والقدسية ليعطي الحركة الداخلية والانفعالية قوة في تبادل الكتلة والفراغ لإعطاء قيمة جمالية ديناميكية.

وهكذا نجد أن الأسلوب الإخناتوني (مدرسة تل العمارنة) قد طغى على الأسلوب المصري الجامد المقدس لإظهار الجماليات والعواطف النفسية ورسم الطبيعة الحية النابضة بالحياة.

ومن الخصائص التي أثبتتها المدرسة الإخناتونية تحقيق الجماليات مع إظهار الاختلالات والتشوهات، بالتصوير الواقعي بما فيه من دلالات جمالية وقبيحة في وحدة فنية رائعة، وتصوير للحيوانات البرية والأليفة وليست الحيوانات المقدسة فقط، فكان العهد الإخناتوني إيذانًا بعهد جديد لفن جديد متجدد.

---

(١) ثروت عكاشة- الفن المصري- الجزء الثاني- صـ٧٠٤.

يمكن أن نقول أن إخناتون هو ملك فيلسوف ورجل مختار ومصلح عمل بأعمال الأنبياء والمرسلين ونادى بنداءاتهم ولكنه ليس برسول ولا نبي لأسباب كثيرة منها شذوذه وانحرافاته فلم يأخذ بالوسطية، فقد كان في إحدى طرفي الإفراط والتفريط ومن هذه الانحرافات:

١- الشذوذ الجسدي بوجود خلل في التناسق الجسدي وتراكيب شاذة لجسم رجل، بالطبع ليس له دخل في هذا الخلل الجسدي، إلا أن الأنبياء والمرسلين يجب أن يكونوا في استواء واعتدال جسدي وأخلاقي وجمالي.

٢- شذوذه العقلي في مخالفته لأهل عصره ومقته الشديد للإله آمون وبقية الآلهة، وعدم الاهتمام بشؤون دولته، وإغفاله عن الثورات التمردية التي حدثت في عهده.

٣- وشذوذه الأخلاقي في تلك العلاقة المريبة التي كانت بينه وبين أخيه (سمنكارع)، وزواجه من أخته (نفرتيتي) وزواجه من ابنته الثالثة (عنخس إن با أتون).

هذه الانحرافات والاتجاهات الشاذة في الإفراط والتفريط تؤكد أنه ليس برسول ولا نبي، بل هو إنسان مصلح وملك فيلسوف وضع دعائم فن جمالي وقائد لأول ثورة فنية على السلطة والتسلط الكهنوتي مع كونه صاحب السلطة والسلطان، فقد بدأ التغيير بنفسه وطبقه على نفسه وطبق تلك المفاهيم الجديدة في مدينته الفاضلة إخيتاتون لتنداح الثورة إلى بقية القطر المصري وإلى العالم أجمع.

كان الحب والجمال مدار نداءاته وأناشيده، والحب والجمال هو البرهان الدال على وجود إله حي محبوب محب، فكانت الطبيعة وجمال الكون مصدر إلهام إخناتون فاتجه الفنان في ذلك الزمان يصور الطبيعة والحياة البرية بروح جديدة تختلف عن روح رسامو مصاطب الإهرامات والقبور والمعابد والصور الجنائزية فاستمدوا إلهاماتهم من الطبيعة الحية والحياة الإنسانية. فنجد لأول مرة في تاريخ الفن[1] ثورة يقودها ملك فيلسوف جعل المحبة والعدالة محور إلهاماته والجماليات غاية اهتماماته، وإظهار

(١) أقول ذلك وأنا أستاذ لتاريخ الفن بكلية الفنون الجميلة والتطبيقية بجامعة السودان منذ عام ١٩٨٠م.

علاقة الإنسان بالإنسان في الفرح والسرور والمحبة لإبراز الحياة الإنسانية الحقة في تحقيق إنسانية الإنسان.

فكان الفنان المصري بعد إخناتون يستلهم فنه من خلال أناشيد إخناتون وتراتيله في نداءاته لأتون في الحب والجمال:

أنت تبزغ بجمالك في أفق السماء

حينما تشرق في الأفق الشرقية

فتملأ كل البلاد بجمالك

أنت جميل ومتلألئ، ومشرق على كل أرض

أنت ساطع وقوي وجميل

وحبك عظيم وكبير

عندما تملأ بحبك الأرضين

وتضيء أشعتك كال العالم

ينامون كأنهم أموات[١]

والناس تحيا عندما ترسل أشعتك

في معبدك في إخيتاتون، ومكان الصدق ماعت[٢]

عندما كنت وحيدًا ولا أحد غيرك

وعشرات الأنفس لتحفظها حية بحبك

مرفوعة لأتون الحي تعبدًا[٣].

---

(١) النوم موت مؤقت، والاستيقاظ بعث متوالي.

(٢) الماعت رمز العدالة والنظام في الحق والصدق «إله العدالة».

(٣) سليم حسن- مصر القديمة- ج٥- صـ٣١٠-٣١٥.

وإخناتون في ثورته التجديدية التوحيدية أعطى للماعت حقه في الحق والصدق والعدالة حينما يعيش بحق على الصدق من عدالة قلبه.

كان إخناتون يحب الحقيقة والصدق ولهذا صمم أن يرسمه الفنانين بما فيه من شذوذ جسدي مطابقة للحقيقة والواقع دون تملق أو محاباة في تمثيل بما فيه من قبح وشذوذ. فقد كانت تماثيل الفراعنة مثالية وخيالية بعيدة عن الواقع وعن الحقيقة في أشكال جامدة مجسدة ومقدسة. أما إخناتون فكان واقعيًا، ولهذا ظلّ الفن المصري بعد إخناتون يحكي عن الواقع ويبرز الحقيقة بكل ما فيها من جماليات واختلالات وتشوهات وقبح.

وبرزت الفنون الصغيرة والصناعات الخفيفة التي تخدم الحياة الدنيوية، وفنون شعبيةتتحدث عن التراث الشعبي والحياة العادية الصادقة وليست حياة الملوك والأبهة الملكية والحياة القدسية الصارمة، فظهرت الفنون الجمالية والتطبيقية لتزين العمل اليدوي من خلال إبداع فني ليس بخساسة المادة ونفاستها بل من خلال العمل الفني المبدع[١].

وهكذا كان تأثير ثوة إخناتون (الفكرية- الدينية- الفنية) أثرت على الفنون المصرية القديمة، وقد امتد التأثير الإخناتوني على الفنون المصرية الحديثة والمعاصرة وهذا هو موضوعنا التالي في تأثير ثورة إخناتون على الفن المصري الحديث وكمثال الفنان المصري محمود مختار وتمثاله نهضة مصر.

[٢] تأثير ثورة أخناتون على الفن المصري الحديث والمعاصر - (الفنان محمود مختار وتمثال نهضة مصر)

نجد أن تأثير المدرسة الإخناتونية أي مدرسة تل العمارنة على الفن المصري الحديث والمعاصر حيث ظهرت السمات الفرعونية وقواعدها الفنية مضافًا إليها السمات الجمالية التي أضافتها مدرسة تل العمارنة بقيادة الملك الفيلسوف الفنان إخناتون، ومن هذه الأعمال الحديثة في الفن المصري أعمال فنية كثيرة منها:

---

(١) نجد أن فنون تل العمارنة (إخيتاتون) موزعة على متاحف العالم. وعليه ننادي من هذا المنبر (المؤتمر الفلسفي) بإعادة الكنوز الفنية التي أبدعها الإنسان المصري إلى مصر. أرجع لكتاب الفن المصري الجزء الخامس لسليم حسن صفحة ٣٤٧ لترى أماكن توزيع هذه التحف الفنية على متحاف العالم!؟

- رأسان من الخشب لحافظ فهمي ١٩٤٢م.
- تمثال سعد زغلول لسيد مرسي صادق ١٩٤١.
- تمثال عروس النيل لأحمد عثمان ١٩٣٧.
- الفلاحة المصرية لأحمد عثمان ١٩٤٢.
- لوحة عروس النيل لأمين صبح ١٩٤١.
- تكوين لحسين بيكار.
- زهرة الصحراء لصلاح الدين طاهر ١٩٤٤.
- مصر هبة النيل لإدوارد زكي ١٩٣٢.
- بائع يتجول لإبراهيم جابر ١٩٣٨.
- حمير وراعية لسعيد الصدر ١٩٣٦.
- على شاطئ النيل لمحمود سعيد ١٩٤٠.

أما الفنان العبقري محمود مختار هو خير مثال للفنان المصري الذي تأثر بالفن الفرعوني في تعامله مع قسوة حجارة الجرانيت بليونة مدهشة متأثرًا بالاتجاه الإخناتوني نحو الجمال من خلال ثورة إخناتون (الفكرية والدينية والفنية) أبدع محمود مختار تماثيل كثيرة تحكي عن الإبداع المصري الرائع في التعامل الجمالي مع الحجارة الصماء الناطقة.

ومن هذه الأعمال المبدعة لمحمود مختار:

- تمثال إيزيس من المرمر ١٩٣٠.
- على شاطئ النيل ١٩٣٠.
- رياح الخماسين ١٩٢٧.
- تمثال الفلاحة.

- تمثال كاتمة السر.
- تمثال الحزن النبيل.
- تمثال القيلولة.
- تمثال مناجاة الحب.
- ريليف تحية أقاليم مصر.
- رليف حاملات الجرار.
- باعة العرقسوس.
- ومن أهم هذه التماثيل تمثال نهضة مصر.

كان تمثال نهضة مصر حدثًا هامًا في الحياة الثقافية والإبداعية في مصر، كمصدر وحي للأدب والفن، فالتمثال يمثل نهضة مصر الحضارية الحاضرة مرتكزة على ماضيها التليد. فالفلاحة المصرية تمثل مصر الحاضرة وهي تستنهض أبا الهول وهي تستند إلى ماضيها الذي يستيقظ في أعماقها فتسري فيها المنعة والعزة لبعث تقاليد فنية عميقة في ربط الماضي بالحاضر لاستشراق مستقبل واعد. وهو نموذج مثالي للاستمداد الحضاري وبلورته من خلال الأصالة والمعاصرة. فكان لتأثير هذا التمثال باعثًا لنهضة أدبية وفنية وإبداعية للنطق الاستاطيقي الجمالي.

وقد نشرت مقالات عديدة لتمثال نهضة مصر منها[1]:

١- نهضة مصر للدكتور حافظ عفيفي- ٢٩ أبريل ١٩٢٠.

٢- نهضة مصر (دعوة للأمة) للأستاذ أمين الرافعي- ٣٠ أبريل ١٩٢٠.

٣- محمود مختار والنهضة الفنية في مصر للأستاذ ويصا واصف- ١٨٢٠.

٤- نهضة مصر وواجبنا نحو مختار للأستاذ واصف بطرس غالي- مايو ١٩٢٠.

---

(١) كتاب محمود مختار- الصفحات ٩٠-١٢٥..

٥- تمثال نهضة مصر وما يجب أن يعلمه كل مصري للدكتور حسين هيكل- يوليو ١٩٢٠.

٦- نجوى التمثال للأستاذ مصطفى صادق الرافعي مايو ١٩٢٨.

٧- تخليد الرجاء لمي

٨- أبو الهول وتمثال مختار للأستاذ عبد القادر المازني- يونيو ١٩٢٨.

ومن القصائد التي قِيلت في تمثال نهضة مصر[١]:

١- قصيدة لخليل مطران.

٢- قصيدة لأحمد شوقي.

٣- ثالوث النهضة لأحمد زكي.

٤- تمثال النهضة لأحمد زكي.

٥- تمثال النهضة لمحمد عبد الغني حسن.

ويعتبر محمود مختار رائد الفن المصري المعاصر والذي يمثل الفن المصري الأصيل، ومجدد للفن الفرعوني، وباعث النهضة الفنية المصرية الحديثة، وهو إيذان بميلاد الفن المعاصر مع عودة الحياة إلى التقاليد القديمة.

وقد أكّد محمود مختار مصريته التي تثبت أن الفنان يستطيع أن يحقق الأصالة والتناسق دون حاجة إلى اعتناق المذاهب الأوربية الحديثة والمعاصرة- كما يفعل منسوبي الفن الحديث والمعاصر في عصرنا الحالي- ولم يقع محمود مختار في خطأ التقليد الحرفي للفن الفرعوني القديم، فقد أدخل منظورًا جديدًا إلى التراث المصري من خلال نزعة جديدة، وبهذا خرج فنه من نطاق التقاليد إلى الحياة الصاعدة.

واستقبل النحت المصري عصرًا جديدًا من القوة التي يستمدونها من المشاعر العامة

(١) المرجع السابق- الصفحات ١٢٦-١٣٩.

ومن خلال ثورة إخناتون في النحت وإبراز للمشاعر من خلال التناسق الجمالي والتعبير الوجداني والعقلاني، ببرهان جمالي لعقل مشرب بالمعنى الجمالي، فثورة إخناتون في القرن الرابع عشر قبل الميلاد تمثلت في إبداعات محمود مختار في القرن العشرين الميلادي.

وكان تمثال (نهضة مصر) لمحمود مختار مفتتح طريق مختار ومنارًا أعلن منه دعوته إلى تجديد الفن المصري العريق. وهذا التمثال يمثل عراقة مصر ونهضتها بأبي الهول القابع في جلسته المقيدة ممثلًا تقاليد مصر، والمرأة الواقفة في اعتداد مستندة بيدها على رأس أبي الهول، وهي تتطلع إلى المستقبل في ثقة واعتداد في نظرتها بجلال من خلال الماضي وفي نظرتها إرادة منبعثة نحو مستقبل واعد.

وتمثال عصر النهضة يقبع في القاهرة، وهناك تمثال آخر بالإسكندرية أمام مكتبة الإسكندرية (تمثال العجل آبيس) والعجل آبيس هو إله الإخصاب عند الفراعنة، وهذا التمثال يمثل عراقة الماضي في اتصاله بالحاضر وهو يمثل الإخصاب بمعالجة تجريدية رائعة تمثل ما وصل إليه الفنان المصري من قوة في التعبير الجمالي المبدع.

وتماثيل الفنان النحات محمود مختار وتماثيل أخرى لفنانين معاصرين خاصة تمثال (العجل آبيس) تعبير جمالي وجلالي لتاريخ إبداعي ممتد ومتجذر في أعماق التاريخ استنهضت الفنان المصري المعاصر لتنطق تلك المنحوتات الحجرية نطقًا جماليًا استاطيقيًا لإبداع مستمر استمرارية الثورة الإخناتونية الفكرية والفنية والإبداعية لفنون أصيلة غير مقيدة ومقلدة للفنون الغربية تحكي عن تاريخ مصر الإبداعي وممتدة من أعماق التاريخ الإنساني.

الخاتمة والنتائج

كان الفن وكان معه الإنسان وكان مع الإنسان الدين، وقد تلازم الفن مع الدين يأخذ الدين قوته بالفن والفن يأخذ مواضيعه من الدين على حسب قوة الاعتقاد وضعفه في النفس البشرية.

واستخدم الفن في الحضارات القديمة استخدامًا بشعًا في محاولة الكهنة إحكام السيطرة على الشعوب والتسلط عليها، إلا أن هنالك ثورات (دينية وفكرية وفنية) تثور ضد هذا التسلط وأولى هذه الثورات هي الثورة الإخناتونية.

فكان لابد من تحرير الفن من القيد الوثني والأسر الكهنوتي والقيد العقائدي والقهر الديكتاتوري والقسر الآيدولوجي، ولابد من ثورة فكرية وإبداعية ليتحرر الفن من هذه الأمراس التي تقيد المسيرة الإبداعية. فلا قيود على الفن إلا قيود الفن نفسه.

فلا تقتصر مهمة الفن في الاستلذاذ أو في تسجية الوقت أو إسقاط للانفعالات فقط بل في استيقاظ النفوس لترى الجمال لتعمل بمقتضى الجمال في مقاومة السلطة وقهر التسلط من خلال حرية الفعل الإبداعي.

فكانت ثورة إخناتون (الفكرية- الدينية- الفنية) في مواجهة سلطة الكهنة وقدسية الفنون الممارسة في خدمة الآلهة وخدمة الفراعنة. كان ذلك بظهور مدرسة تل العمارنة في القرن (١٤) ق.م.، وقد أثرت هذه الثورة في الفنون المصرية القديمة والحديثة والمعاصرة.

اكتسب الفنان المصري فنه من عقيدته (عقيدة الخلود) واستمد حكمته من فنه فأقدم على تقديم أضخم المشاريع العمرانية والتماثيل الجرانيتية والمعابد الشاهقة والرسوم الجدارية والبرديات الوثائقية والإهرامات. وقد ارتبطت فنونهم بعقيدتهم فكانت فنونًا مقدسة مثالية فسيطر الكهنة على مقاليد الأمور وعلى المسارات الفنية في خدمة الكهنوت المصري وخدمة الآلهة وخدمة الفراعنة.

فكانت ثورة إخناتون ضد تسلط الكهنة وقهر التسلط الكهنوتي على الفن. فتحول الفن من خدمة الكهنة إلى خدمة الإنسان وإظهار للمظاهر الجمالية من السلوك الإبداعي وأقام إخناتون مدينته الفاضلة وطبق مفاهيم مدرسة تل العمارنة، سبق بذلك جهورية أفلاطون بعشرة قرون رمزًا للحرية الفنية والحب والجمال فأحدثت هذه المدرسة نقلة جديدة للفن ومفهومًا جماليًا للفن أثر ذلك على الفنون الفرعونية وامتد هذا التأثير الجمالي إلى الفن الحديث والمعاصر.

فقد كان (الماعت) لب الفلسفة المصرية، وقد قدم (بتاح حتب) تعاليم أخلاقية في القرن (٢٧) ق.م. وتعتبر بردية (إيبوور) وثيقة تاريخية للنقد الفلسفي في القرن (٢٠) ق.م. ثم كانت ثورة إخناتون (الفكرية والدينية والفنية والفلسفية) في القرن (١٤) ق.م. لتزدهر الفلسفة عند اليونان في القرن (٤) ق.م، وهذا ما أكّده الدكتور مصطفى النشار رئيس قسم

الفلسفة بجامعة القاهرة، ونحن نؤيده في ذلك. وبهذا يكون إخناتون قد تميّز في بناء المدينة الفاضلة في تل العمارنة تطبيقًا لنظريته التجديدية. وهي أول مدينة في التاريخ تمارس فيها الفنون بحرية إبداعية وسلوك إبداعي وممارسة للعدالة والفضيلة.

ويُعد إخناتون أول ملك فيلسوف (إنسان مختار) نادى بثورته التجديدية وطبق فلسفته النظرية إلى فلسفة عملية في محاولة لبناء حضارة جمالية مستوحيًا فكره الفلسفي من المصادر المصرية في مخاطبته الوجدان المصري ليفسر الحياة الدنيوية في اتصالها بالخلود الأخروي بمفهوم جديد غير المفهوم القديم في محاولتهم تعمير الآخرة. فكان الاتجاه الإخناتوني فنًا واقعيًا دنيويًا وأخرويًا فكان المنظور الاستاطيقي الجمالي بدلًا عن المنظور الجلالي القدسي، ليسود الحب ويشيع الجمال بين الناس فتحول المذهب العقدي الجامد إلى مذهب طبيعي حي في حب الطبيعة بالاستلهام الجمالي.

وقد عمل إخناتون بأعمال الأنبياء والرسل ولكنه ليس بنبي أو رسول لشذوذ واختلالات وانحرافات جسدية وعقلية ونفسية وأخلاقية- كما بيّنا- بل كان ملكًا فيلسوفًا قاد أول ثورة (فنية، دينية، فكرية) في التاريخ جعل المحبة والعدالة والسلام محور إلهاماته، والجماليات غاية اهتماماته، وأعطى للماعت حقه في الحق والصدق والعدالة. فكان تأثير ثورة إخناتون جميلًا على الفن المصري القديم والحديث والمعاصر، وكانت الثورة الإخناتونية إبداعًا لفنون مصرية أصيلة امتدت حتى كان الفنان المصري النحات محمود مختار وتماثيله الجرانيتية المبهرة التي تحكي عن أصالة الماضي بدون تقليد أعمى وبُعدًا عن الفن الأوربي الحديث والمعاصر، فقد عمل بالطريقة الإخناتونية في إبراز الجمال من خلال مساحات شعبية نابعة من أرض الواقع.

فكان محمود مختار هو (إخناتون) القرن العشرين في تطبيقه لمنظور إخناتوني للفن والإبداع الجمالي وفي تحقيق الأصالة والمعاصرة. فقد تعامل مع قسوة حجارة الجرانيت بليونة مدهشة- مثلما تعامل مايكل أنجلو مع الرخام- وقد تأثر محمود مختار بالاتجاه الإخناتوني في نحوه نحو الجمال فنطقت الحجارة الصماء النطق الاستاطيقي الجمالي، من خلال بعث تقاليد فنية وربط الحاضر بالماضي استشراقًا للمستقبل، وهو نموذج مثالي للاستمداد الحضاري، فهو مجدد للفن المصري وباعث للنهضة الفنية التي بدأها إخناتون

من قبل (٣٥) قرنًا من الزمان، كما أن تمثال العجل آبيس (الإخصاب) بالإسكندرية يؤكد هذا الاستمداد الحضاري[١].

فالفن هو تعبير جمالي عن تاريخ الشعوب، والفن أصدق أنباء التاريخ، فكم من حقائق تاريخية انزوت في ظلمات التاريخ فكان الفن هو الكاشف عن تلك الحقائق المخفية، لأن الفن تعبير الشعوب عن نفسها بنفسها لنفسها.

والفن رسالة إنسانية، ووسيلة بشرية (بارعة) للإفصاح عن حالة (الوعي) الإنساني بتقديم الحل (الرائع) للإيقاعات الجمالية بتحقيق الروعة الإبداعية.

وقد حقق إخناتون هذه المفاهيم بثورته (الفكرية والدينية والفنية) قبل (٣٥) قرنًا ليؤكده الفنان محمود مختار في إبداعاته الفنية الرائعة.

فلا قيود على الفن إلا قيود الفن نفسه، ولهذا استخدم الإسلام أسلوب (لا تفعل) ولم يستخدم أسلوب (افعل) في الفن، لأن المأمور بـ(افعل) هو مقيد داخل فعله لا يتعداه إلى غيره، أما المنهي بـلا تفعل) فإن انتهى عمّا نُهي عنه فهو في باقي الأشياء مختار، فيكون الفن في منطقة الاختيار لا منطقة الإجبار.

السلطات الكهنوتية والآيدولوجية والدكتاتورية مقيدة للفن بل قاتلة للفن من خلال التحكم والتسلط القهري الذي يقهر الفنان والفن والمتلقي أيضًا، فيكون الفن إما ثائرًا أو سائرًا وكلاهما في طرفي الإفراط والتفريط فيكون الفن منعزلًا عن واقعه الحقيقي ويكون فنًا بارعًا لا رائعًا. أما الفن الجمالي المبدع يكون من خلال الوسط الاعتدالي. في تحقيق الروعة الإبداعية من خلال التخلي والتحلي والتجلي لبناء حضارة إنسانية جمالية عندما يكون الإنسان خاشعًا نقيًا ومبدعًا تقيًا وحرًا وفيًا، في مقاومة السلطة وقهر التسلط، وهذا ما فعلته (مدرسة تل العمارنة) بقيادة إخناتون الملك الفيلسوف في مدينته الفاضلة (إخيتاتون)، وما أكده الفنان المصري النحات محمود مختار في تماثيله الجرانيتية والتي تنطق نطقًا استاطيقيًا جماليًا خاصة تمثاله (نهضة مصر) بالقاهرة، وتمثال (العجل آبيس) (الإخصاب) بالإسكندرية. والتسلط يولد مقاومة ويفجر ثورة. وعلى الرغم من القهر كان الإبداع وكانت الحضارة، من خلال الإبداع الإنساني الرائع.

---

(١) انظر اللوحات في الملحق (ملحق الصور والأعمال الفنية)- من (١-١٥).

المراجـــع

المراجع العربية

١- آرنست فشر: ضرورة الفن، ترجمة ميشال عاصي، دار الحقيقة، بيروت ١٩٦٥م.

٢- آرنست كاسير: فلسفة الحضارة الإنسانية، ترجمة إحسان عباس، بيروت، ١٩٦١م.

٣- آرنولد هاوزر: الفن والمجتمع عبر التاريخ، ترجمة فؤاد زكريا، المؤسسة العربية، بيروت.

٤- إيتان سوريد: الجمالية عبر العصور، ترجمة ميشال عاصي، منشورات عويدات، بيروت، ١٩٩٩م.

٥- ثروت عكاشة: تاريخ الفن- الفن المصري، ٣ مجلدات، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٧٢.

٦- جورج سانتيانا: الإحساس بالجمال، ترجمة محمد مصطفى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٩٦.

٧- عز الدين إسماعيل: الفن والإنسان، دار القلم، القاهرة، ١٩٧٤م.

٨- ماجد موريس إبراهيم: سيكولوجية القهر والإبداع، دار الفارابي، بيروت، ١٩٩٩.

٩- مجموعة مؤلفين: محيط الفنون، الفن التشكيلي، دار المعارف بمصر.

١٠- مجموعة مؤلفين: محمود مختار، المكتبة العربية، وزارة الثقافة والإرشاد، القاهرة، ١٩٦٤.

١١- محمد صدقي الجباخنجي: تاريخ الحركة الفنية في مصر إلى عام ١٩٤٥، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٨٦.

١٢- مصطفى النشار: الفكر الفلسفي في مصر القديمة، الدار المصرية السعودية للنشر، القاهرة، ٢٠٠٤.

١٣- مصطفى عبده: مدخل لفلسفة الجمال، مكتبة مَدبولي، القاهرة، ١٩٩٩م.

١٤- مصطفى عبده: ملامح الفن التشكيلي، مطبعة جامعة النيلين.

١٥- نعمت إسماعيل: فنون الغرب في العصور الحديثة، دار المعارف بمصر.

١٦- روبرت جولد ووتر: الفن والفنانون، ترجمة مصطفى الصاوي، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧.

١٧- توماس مونرو: التطور في الفنون، ترجمة محمد علي أبو ريدة، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٧١.

المراجع الإنجليزية

1- Christensen E. O.: «A Pictorial History of Western Art» Menter Book.

2- Janson, H. W.: "History of Art" Harry N. Abrams, Inc. New York, 1963.

3- Jelinek, J.: "The Evolution of Man" tra. by Helga Hanks, London, 1975.

4- Posener, G.: "A Dictionary of Egyptian Civilization" Methuen and G. L. T. London, 1962.

5- Read, H.: "The Art Sculpture" Faber and Faber Ltd. London, 1954.